الإسلام في الفضاء الأوروبي ومهاجرو بلدان شمال أفريقيا: بين دعاوى الإقصاء وصراع البحث عن الهوية

أنوار بنيعيش(*)

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، فاس مكناس – المغرب.

مقدمة

مثلت الهجرة موضوعًا شائكًا للنقاش المجتمعيّ يطرح بشدة في اللحظات الحرجة التي تمر بها بلدان الاستقبال الأوروبية؛ فكلما اقتربت الاستحقاقات الانتخابية أو عرف الاقتصاد هزَّات قاسية نتيجة ظروف محلية أو دولية مُربكة أو صراعات أو أزمات، تتجه الأنظار إلى موضوع الهجرة والمهاجرين مع نبرات التشكيك والاتهام بالمسؤولية عن تدهور الأوضاع وتهديد صرح الرفاهية الأوروبية، وتقليص فرص السكان الأصليين في جني ثمار عقود من التقدم المطَّرد.

لهذا يظل المهاجرون عرضة للهجوم رغم أن عددًا منهم قضوا عقودًا طويلة من الكدح في سبيل بناء بلدان الاستقبال الغربية. ورغم أن أبناء المهاجرين ولدوا وترعرعوا فيها وتلقوا تكوينًا صلبًا يؤهلهم للانخراط الفعلي في اقتصاد هذه المجتمعات، فإن النقاش يحتدم بمجرد أن تزداد حدة الأزمات الاقتصادية وتتفاقم المشاكل الاجتماعية، ويضحي المهاجرون، بجرة قلم، أغيارًا من ثقافات وديانات مختلفة، وتنقلب التعددية ـ عند المتعصبين ـ إلى عوائق ونيات سيئة مُبيَّتة لغزو بلدان الاستقبال وطمس معالم حضارتها.

من هنا، وقع اختيارنا على أن نبحث في الدين الإسلامي في فضاء المهجر كمكوّن ثقافي مميز للجوالي الوافدة من بلدان شمال أفريقيا من أجل رصد العلاقة بين المهاجرين العرب المسلمين والمجتمعات الغربية المستقبلة وكيف يؤثر عامل الدين سلبًا أو إيجابًا في تخفيف وطأة العنصرية ونار الاختلاف بين المهاجرين والسكان الأصليين في البلدان المضيفة. وعبر سبر هذه العلاقة، نأمل أن نجيب عن إشكالية مُلحة ثلاثية الأقطاب: البلدان الأوروبية المستقبلة، والمهاجرون، والدين الإسلامي، لكي نحدد العلاقة بين هذه الأطراف وتأثيراتها في المهاجرين وأوضاعهم في بلاد المهجر، وآليات تطويرها لتحقيق المعادلة المنشودة حيث الموازنة الحقيقية بين مصالح البلد

(*) البريد الإلكتروني: anouar1_ben@hotmail.com

المضيف وبين الهوية الثقافية للمهاجرين المسلمين من دون التضحية بجزء من هذه الخصوصية؛ محاولين الكشف عن سبل تغيير النظرة الغربية المتعالية للدين الإسلامي من التوجس منه كعائق ومعرقل للاندماج المجتمعي إلى عنصر هوياتي مُثْرٍ للتعددية الثقافية بدول الاستقبال.

أولًا: الدين الإسلامي في فضاء المهجر

1 ـ هجرة سكان الشمال الأفريقي وسلطة الجغرافيا

يمثل القرب الجغرافي بين أوروبا وشمال أفريقيا واشتراكهما في حوض البحر الأبيض المتوسط قدرًا لا مفر منه، ويجب التعامل معه على أساس هذا المنطلق الذي يحتم البحث عن توافقات وآليات للاستفادة من هذا الوضع الجغرافي الخاص، بدلًا من حسبانه لعنة وثغرة لمرور أمواج المهاجرين السرّيين. ويبدو أن إسبانيا في علاقاتها الجديدة مع المغرب بدأت تستسلم لهذا المنظور الإيجابي ومحاولة تحقيق أقصى استفادة منه عبر التفكير في مشاريع علاقات اقتصادية مع المغرب البلد الذي تطله منه على أفريقيا بما يخدم مصالح البلدين، وهذا ما نمّى الشعور بعودة الدفء إلى العلاقات الإسبانية ـ المغربية، وحفز على إعادة إحياء التفكير في مشروع النفق الرابط بين القارتين الأوروبية والأفريقي عبر المتوسط، وهو في حد ذاته مؤشر جيد على انفتاح العلاقات بين البلدين مستقلًا على أكثر من صعيد.

2 ـ الإسلام مكونًا ثقافيًا للجوالي من أصول شمال أفريقية

تعَدّ الجالية المسلمة في أوروبا من أكبر الجوالي من حيث العدد، وأقدمها من حيث تاريخ الهجرة وتَعاقُب الأجيال التي عاشت في البلدان المستقبلة بحكم الارتباط الجغرافي الحتمي المستند إلى اشتراك بلدان الشمال الأفريقي وأوروبا في حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة، والعلاقات التاريخية التي تحكمت فيها منذ أمدٍ طويلٍ تجارة كانت أم صراعًا دينيًا أم احتكاكًا عسكريًا مباشرًا عبر الاستعمار وغيره من جهة ثانية. حيث يحضر الدين الإسلامي حضورًا قويًا في هذه البلدان، ولا يمكن الحديث عن دول من قبيل المغرب والجزائر وليبيا وموريتانيا من دون ربطها بالدين الإسلامي ربطًا مباشرًا، بينما تونس نفسها التي قضت عقودًا تحت قيادة علمانية حاولت تهميش الدين في ظل حكم بورقيبة وبن علي ظل سكانها متشبثين بالهوية الإسلامية وما إن اندلعت ثورات الربيع العربي حتى حاولت استرجاع هويتها الدينية بدايةً سياسيًا ثم عمليًا في الطقوس اليومية.

إن المهاجرين المنتمين إلى هذه البلدان، لا يمكن توقع انفصالهم عن المكوّن الديني، والتخلي عنه بدعوى الاندماج والتأقلم مع قوانين بلدان الاستقبال، بل ظلوا متمسكين بهذه الهوية أكثر في ظل مجتمعات غربية ذات أغلبية مسيحية، فلم يكن انتماؤهم إلى الأقليات ليثبط عزائمهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية بوصفها جزءًا لا يتجزأ من جوهرهم الثقافي المحدد لها، وقد تعرض الكثير منهم لمضايقات بسبب ذلك، وبخاصة النساء اللائي تعرّضن لتمييزات عنصرية في فضاءات مختلفة، وبخاصة منها مجالات الدراسة والعمل، إذ تم استهداف «الحجاب» في 27 دولة أوروبية[2] من

(2) «Restrictions on Muslim Women's Dress in the 27 EU Member States and the United Kingdom Current Law, Recent Legal Developments, and the State of Play,» Open Society Justice Initiative, Policy Report, New York (March 2022) p. 156, <https://rebrand.ly/47bcd0>.

طريق إقصاء المحجّبات من فرص العمل، وارتياد بعض الأماكن العمومية بدعوى الحفاظ على حياد المؤسسات المشغلة دينيًا ورفض توظيف الرموز الدينية... بل إن النقاش أضحى عموميًا بخصوص منع النساء من ارتياد الشواطئ والمسابح وهن يرتدين لباس بحر معدل «بوركيني» بمبررات واهية وغير مقبولة مثلما هو الشأن في حادثة المنع التي أقرتها بلدية غرونوبل بفرنسا مثلًا[3].

3 ـ تأثير الدين في العنصرية

يصعب الحسم في أن العنصرية الثقافية التي يتعرض لها المسلمون في إطار إذكاء الخوف الممنهج من الإسلام، قائمة فقط على الأسباب المادية الصرف، بل ربما يكون للجوانب الثقافية والدينية منها الدور الأكبر في تنمية الإحساس بالرفض تجاه الإسلام والمسلمين، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال تعرُّض المسلمين للعنصرية في البلدان ذات الأصول اللاتينية والديانة الكاثوليكية أكثر من غيرها من البلدان المتحررة أو التي تتبنى البروتستانية مثل إنكلترا وإسكتلندا.. وهو ما يمكن تفسيره على أنه كلما كانت الهوية في البلد الأوروبي تبنى على المرجعية الدينية الكاثوليكية نمّت الإحساس لدى العامة بأن الإسلام هوية مضادة، وأنه لا يمكن تقبُّل فكرة التعايش داخل فضاء بلد واحد.

4 ـ المكون الهوياتي الديني والعنصرية الغربية

أضحى الإسلام عند الكثير من الغربيين، وبخاصة في أوروبا، موازيًا لمعنى الإرهاب والجريمة، حيث سعت الكثير من الهيئات والأفراد إلى تعزيز أجواء الخوف من المسلمين المهاجرين بوصفهم قنابل موقوتة قابلة للانفجار في أية لحظة مهددة مجتمعات أوروبا الغنية، وهو ما زاد من تنمية مشاعر الكراهية تجاه الوافدين الجدد والمهاجرين الموجودين على الأرض الأوروبية منذ جيلين على حد سواء، فتنامت الأدبيات اليمينية المتطرفة التي سعت إلى استغلال أوقات الأزمات والانتكاسات لتلقي باللوم المباشر على هؤلاء الفئة من المهاجرين وشيطنة الدين الإسلامي بوصفه دين عنف وإرهاب، وهو ما زاد من حوادث العنف التي يتعرض لها المهاجرون من أصول إسلامية (حادثة إحراق الشيوخ أمام المساجد التي كان بطلها شاب من أصول أفريقية).

غير أن تجاهل الإسلام ومحاربته عبر القوانين والأنظمة وتجييش الأدبيات اليمينية لمناهضته لا يعني بالضرورة أنه لا يمثل واقعًا حقيقيًا في أوروبا المعاصرة، فهو، كما يقول ديلانتي، «جزء من التراث الحضاري الأوروبي، وكنتيجة للهجرة في العقود الأخيرة، فإن إسلامًا أوروبيًا موجود الآن ويمكن النظر إليه على أنه التعبير الأخير عن تاريخ طويل من العلاقات الإسلامية الأوروبية»[4].

---

(3) «Le Conseil d'Etat confirme l'interdiction du port du burkini dans les piscines municipales de Grenoble,» *Le Monde*, 22/6/2022, <https://rebrand.ly/hr3lk5k>.

(4) Gerard Delanty, *Formations of European Modernity: A Historical and Political Sociology of Europe* (Cham, Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019), p. 91.

ثانيًا: الإسلام في المهجر ونظرته إلى فضاءات الاستقبال

1 ـ الإسلام من منظور الغرب: مكون هوياتي أم تهديد ثقافي؟

كيف ينظر الغربيون إلى الإسلام بوجه عام؟ ثم كيف ينظرون إليه وهو على أعتاب بلدانهم؟ فالمنظوران مختلفان؛ ذلك أن الجهل في حد ذاته بهذا الدين وخصوصيته بعد أن أصابه الكثير من التشويه والتعمية إعلاميًا وأدبيًا[5]، وخضع لحملات ممنهجة من الطعن في مبادئه والتدليس على ركائزه، وتأويل شرائعه وتحريف معاني نصوصه الدينية.

2 ـ الإسلام العدو الحضاري للغرب: وهم الصراع ونظرية الصدام

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، واستتبت للغرب أسباب التقدم والرفاه الاجتماعي، شرع بعض مفكريه في تمجيد النموذج الغربي بوصفه التتويج الإنساني للمسار الحضاري، الذي يجب أن يعمم على العالم، أو ما سمَّاه فوكوياما نهاية التاريخ، وتوقفه عند هذا التقدم الذي لا يوجد وراءه تطور آخر[6]، البحث عن سبل لخلق أعداء وهميين يضادّون هذا النموذج، وكان أن وقع الاختيار على الحضارة الإسلامية على أنها المضاد للنموذج الغربي في أكثر من مؤلَّف لعل أشهرها ما ورد عن منظّر **صدام الحضارات** صامويل هنتغتون، الذي صرح في كتابه على أن الإسلام يمثل المضاد الحضاري للغرب ومن ثم حتمية الصراع بين الطرفين صراعًا ينتهي بانتصار الأقوى والأصلح ممثلًا بالحضارة الغربية[7]... ورغم أن الكتاب بُني في جوهره على فرضيات متسرعة وانفعالية تدّعي تقديم قراءة تفصيلية للتاريخ الإنساني وديناميةحركته في ضوء تعميمات تضع الحضارات الإنسانية المتنوعة والمختلفة في مأزق الصراع الذي يقتضي النجاة والهيمنة لطرف والفناء لطرف آخر، وهو ما لم يتحقق على أرض الواقع حتى مع الثقافات التي خضعت لحملات تذويب ممنهجة وعنيفة كحضارات الآنكا، ومجتمعات الهنود الحمر، والأسكيمو، و«الأبوريجينز» في أستراليا، وقبائل الأمازون... فقد ظلت هذه الشعوب متمسكة بثقافاتها رغم ما خضعت له من معاناة تذويب على يد الغرب بكل أجهزته العسكرية والدينية[8].

---

(5) خصص كتاب **الإسلاموفبيا**، فصلًا للتشويه الإعلامي متخذًا نموذج الكاريكاتير، وفيه تظهر القصدية المضمرة في تشويه العرب والمسلمين والتاريخ الإسلامي عبر المسّ برموزه بطريقة ساخرة فيها الكثير من الحقد والمغالطات المتعمدة. للمزيد من التفاصيل انظر الفصل الأخير من الكتاب: John L. Esposito and Ibrahim Kalin, eds., *Islamophobia: The Challenge of Pluralism in the 21st Century* (Oxford: Oxford University Press, Inc., 2011), pp. 191 – 208.

(6) انظر كتاب **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** من أجل فهم العملقة الذاتية الغربية وتقزيم الآخرين بغلاف عنصري جديد قائم على حتمية تفوق النموذج الغربي وضرورة اضمحلال النماذج الثقافية والحضارية الأخرى لكونها لم تصل ولا يمكن أن تصل أصلًا إلى مرحلة النضج لاختلال المنطلقات.

(7) لمزيد من التفاصيل، انظر: صمويل هنتنغتون، **صدام الحضارات واعادة بناء النظام العالمي**، نقله الى العربية مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف (مصراتة، ليبيا: الدار الجماهيرية، 1999).

(8) على سبيل المثال، كانت هناك انتهاكات جسيمة في حق أبناء السكان الأصليين في مدارس أسسها المستعمرون وتبنتها الكنيسة لمحو آثار الحضارات الأصلية في بلدان مثل: أستراليا وكندا...

ثالثًا: الإسلام دين المهاجرين في بلدان الاستقبال

يمثل الاندماج في حد ذاته مفهومًا فضفاضًا وغير بريء، ففي طرحه الأقصى يفترض كتلتين بشريتين مختلفتين من حيث القوة والامتياز؛ فمن جهة هناك أصحاب البلد بكل ما في التعبير من استفادة من الحقوق، ومن جهة ثانية هناك فئة أخرى وافدة أو من أصول وافدة يفترض خضوعها لهيمنة الفئة الأولى ثقافيًا ومسايرتها في العادات والمرجعيات الدينية وتذويب هويتها الجمعية فيها، وهو أمر كشفت السنوات والعقود المتوالية أنه غير قابل للتحقق ولا يخدم المجتمعات المستقبلة نفسه بقدر ما يزيد الشرخ حدة بين مهيمِنين ومهيمَن عليهم يشاركون في اقتصاد البلدان ونهضتها ويحرمون من التكافؤ الثقافي مع الطبقة الأولى كما تنامى الشعور بالظلم والحقد أحيانًا على النخب الحاكمة العاجزة عن فرض تعددية المكونات الثقافية على المجتمع.

رابعًا: الإسلام والمهاجرون في بلدان الشمال الأوروبي

تعَدّ بلدان الشمال الأوروبي مجتمعات رفاه بامتياز بحسب معظم التصنيفات الدولية بسبب ارتفاع مؤشرات الحياة الرغيدة بمختلف جوانبها مقارنة بسائر البلدان الأوروبية؛ فقد خولت لها الموارد الطبيعية، كالثروة النفطية وحسن التدبير والاهتمام بالتعليم، فرصًا أكبر لتحقيق مستويات رفاهية عالية، واهتمامًا أوسع بالجوانب الإنسانية فأصبحت منطقة استقطاب كبرى للمهاجرين العرب والمسلمين من مختلف الأقطار، وبخاصة أن دعوى منافسة المهاجرين للسكان الأصليين على فرص الشغل والثروات تضحي غير منطقية ولا مقبولة في ظل مثل هذه الظروف، وهو ما قد يبشر بوضع مستقر للمهاجرين من الديانات المختلفة، ومنهم المسلمون. لكن الصورة في الواقع لا تحضر بالإشراقة نفسها مع ظهور عددٍ من الحوادث التي تكشف عن عنصرية وحقدٍ يمارسه البعض تجاه المسلمين مثل وقائع الإساءة لرموز الدين الإسلامي أو حرق المصحف الشريف أكثر من مرة على أيدي متطرفين تحت حماية السلطات الرسمية أحيانًا وتحيزها ضد الإسلام والمسلمين بمبرر الدفاع عن الحريات.

ورغم توغل المهاجرين في مختلف المجالات والميدان في بلدان الشمال الأوروبي، وتمكُّنهم من الحصول على مراتب عليا في النسيج المهني للمجتمع، فقد بقيت هذه المجتمعات عرضةً لانتهاكات حقوقية تمس المهاجرين المسلمين، وتترصد مظاهر المرجعية الدينية بالرفض والإقصاء، وبخاصة النساء المسلمات اللائي أضحين مستهدفات بسبب حرص بعضهن على ارتداء الحجاب، وهناك الكثير من القضايا المشار إليها[9].

(9) «Restrictions on Muslim Women's Dress in the 27 EU Member States and the United Kingdom Current Law, Recent Legal Developments, and the State of Play,» Open Society Justice Initiative, p. 194.

خامسًا: المكوّن الهوياتي الإسلامي في الفضاء الأوروبي وسلطة الواقع

لقد حاولت المجتمعات الأوروبية تعزيز نسخة إسلامية بمعايير أوروبية أو ما سمي الإسلام الأوروبي (Euro-Islam) من طريق مأسسة الإسلام الغربي، حيث اجتمعت 400 جمعية تمثل المسلمين في أوروبا سنة 2008، وحررت وثيقة تشير بوضوح إلى أن «حقوق الإنسان والحرية جزءان من القيم التي يتشارك فيها مسلمو أوروبا، والتي تشكل القيم الجوهرية في «الأورو-إسلام» أو «الإسلام الأوروبي»»[10]. وهذا ما يشير إلى أنها أضحت تستشعر خطورة العنصر الديني الإسلامي وتؤمن باستحالة تذويبه في الثقافة الأوروبية تذويبًا تامًا، حيث شرعت في محاولة تدجين بمحاولة وضع أسس بمعايير أوروبية غربية، غير أن هذه المحاولة نفسها لم يكتب لها إلا نجاح جزئي باهت، نظرًا إلى حجم التغييرات المنشودة في فئات المهاجرين من أصول إسلامية شمال أفريقيا، فمع الوقت اشتدت المقاومة لدعاوى الانصهار. بل إن الإسلام أضحى ديانة قوية في أوروبا مع مرور الوقت تنافس المسيحية من حيث الانتشار، وتتفوق عليها ديمغرافيًا إذا ما أخذنا اللادينين في الحسبان في بعض البلدان (بريطانيا مثلًا حسب آخر إحصاء). وهذا ما يجعل الإسلام واقعًا مفروضًا على أوروبا بحكم الديمغرافيا تارة، وبحكم الاقتصاد تارة (أموال واستثمارات دول الخليج في أوروبا وسيطرتها على قطاعات حيوية ذات تأثير في الشباب مثل الأندية الرياضية الكبرى سان جيرمان الفرنسي مثلًا..)، والجغرافيا تارة ثالثة نتيجة القرب الاستراتيجي للدول الأصلية للمهاجرين من أوروبا وحاجة هذه الأخيرة إليهم في ظروف استثنائية كالتزود بالطاقة في ظل عواقب الحرب الروسية ـ الأوكرانية، وإيجاد متنفسات قريبة لتنمية صناعاتها المكلفة كصناعة السيارات بدولتي المغرب والجزائر. فيجب ألَّا أن ننسى أن اقتصادات بعض دول الخليج في أوروبا من الداخل وسيطرتها على بعض المحافل الأكثر جماهيرية كما هو الشأن بالنسبة إلى الأندية الرياضية مثلًا (القطري رئيس نادي باريس سان جرمان والسعودي رئيس نادي نيوكاسل يونايتد).

غير أن قوة حضور الإسلام في البلدان الأوروبية بدلًا من أن يُعَدّ مؤشرًا عمليًا وحافزًا اقتصاديًا واجتماعيًا على الاعتراف به وبالمسلمين والتعايش معهم في حدود تحفظ للهويات الثقافية المُحتكَّة فيما بينها (صعوبات المهاجرين الإسلامية وصعوبات الأوروبيين المسيحيين تارة واللادينية تارة أخرى)، أضحى يُعدُّ تهديدًا استراتيجيًا من طرف القوى اليمينية المتطرفة بتواطؤ مع السلطات السياسية أحيانًا (زمور/ميشيل هيلبيك/...) و(المحاولات المتكررة لإحراق نسخ من القرآن الكريم تحت حماية السلطات كما وقع في السويد)، وانبرت بعض الأبواق المحسوبة على اليمين المتطرف لتهاجم الدين الإسلامي بوصفه عنصرًا دخيلًا يسهم في الغزو الثقافي والهوياتي الممكن لأوروبا بقيم التعصب المزعومة، وقدرته بحسب هؤلاء على تجييش الأقليات ضد الأغلبيات الأوروبية، وإحداث بؤرٍ للإرهاب وخلايا متوثبة يتوقع أن تنجز ضرباتها الفجائية في كل آن وحين. وهو ما

(10) Moch Faisal Karim, «Integrating European Muslims Through Discourse?: Understanding the Development and Limitations of Euro-Islam in Europe,» *Journal of International Migration and Integration*, vol. 18, no. 4 (2017), p. 1107.

كذّبته الإحصاءات الرسمية نفسها، وبينت أن وقائع الإرهاب المسجلة إنما هي حالات فردية ترتبط باضطرابات نفسية واجتماعية لبعض الأفراد بمعزل عن انتماءاتهم الدينية أكثر منها عمليات منظمة ومفكرًا فيها بعمق ومسبقًا. كما أن بعضها رغم عنفه وشدته يعدّ ردود أفعال مبالغًا فيها، وغير مقبولة طبعًا، على استفزازات تمسّ المكون الهوياتي استفزازًا [11]يقصي الهويات الأخرى غير الأوروبية ويعلي من شأن الهوية الغربية بأبعادها المختلفة حتى الدينية بوصفها هوية السكان الأصليين في بلدان الاستقبال الذين يخول لهم وحدهم التصرف المطلق في عالم بُني على أكتاف المهاجرين وبشراكتهم.

إنها مسألة نظرة إلى الواقع منحازة ومحرَّفة أكثر منها واقعًا فعليًا لا يرتفع ولا يمكن تعديله أو تغييره؛ فالغربي، كما يرى تودوروف باستشعاره الخوف من المسلمين المهاجرين للوصول وتعمده تجنب تقديم تنازلات لتقارب الهويات، حفر خندقًا عميقًا من الخوف والتوجس يحول دون تحقيق التواصل السليم والحقيقي بين مكونات المجتمعات الأوروبية المعاصرة، ويشجع على استمرار دائرة العنف بين أطراف يحركها الخوف أكثر مما تحركها المرجعيات الدينية أو الهويات الأصلية، ومن ثمَّ يسهم في تبرير مزيد من التضييق الممنهج وغير العادل على الحريات التي من المفروض أن يستفيد منها أبناء الوطن الواحد بمعزل عن قناعاتهم الدينية أو أصولهم الثقافية والجينية؛ إلى درجة أنه في تقرير عن الإسلاموفوبيا في أوروبا تمت الإشارة إلى أن «استطلاعًا للرأي كشف أن أغلبية الأوروبيين يريدون أن تمنع الهجرة من بلدان ذات الأغلبية المسلمة. بمعدل 55 بالمئة من المستجوَبين من 10 دول أوروبية موضوع البحث عبّروا عن رغبتهم في أن تتوقف ـ في المستقبل ـ الهجرة الآتية أساسًا من البلدان ذات الأغلبية المسلمة»[12]؛ فالتاريخ القريب[13] وحقيقة الوجود في الأرض لعقود ومشاركة فضاء العيش لأكثر من جيل كل ذلك يعدّ في حد ذاته هوية أوروبية جديدة يفترض أن تحول دون كل ضروب التمييز، وأن تقف حاجزًا منيعًا دون تسرّب الأفكار المتطرفة والعدائية للمهاجرين من أصول مسلمة تحت أي ذريعة كانت؛ فكل خطوة نحو العنف تعدُّ لبنة تضاف إلى الجدار الوهمي الذي ينمي مساحات الجهل وسوء الفهم ويقلص إمكانات التواصل

---

(11) انظر: تزفيتان تودوروف، **الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات**، ترجمة جان ماجد جبور، مشروع كلمة (أبو ظبي: منشورات هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009).

(12) Dixième Rapport de l’observatoire de l’OCI sur l’islamophobie octobre 2016 – mai 2017, présenté au 44ème Conseil des Ministres des affaires étrangères Abidjan, République de Côte d’Ivoire, 10-11 juillet 2017, p. 43, <https://rebrand.ly/e49612>.

(13) تعدّ الهجرة بحسب بعض الكتابات المنصفة عاملًا مهمًا في تشكيل هوية الحضارة الأوروبية المعاصرة، يمكن الرجوع إلى كتاب **تشكلات المعاصرة الأوروبية**، وفيه يشير إلى الإسلام في أوروبا، حيث يقول الكاتب: «كثير من المسلمين هم إنتاج الهجرة إلى أوروبا طوال أربعة عقود الماضية، وبخاصة إلى فرنسا وألمانيا. وبهذا المعنى، يغدو من الممكن أن نتحدث عن **إسلام أوروبي** نشأ من هجرة مشتتة من الشعوب الإسلامية. وبرؤيتها من زاوية تاريخية، هجرة المسلمين من تركيا وشمال أفريقيا في العقود الأخيرة يمكن أن يُنظر إليها في سياق التدفقات البشرية الكبرى التي وقعت عبر التاريخ» وغيرت مجراه وبنياته الإثنية. انظر: Delanty, *Formations of European Modernity: A Historical and Political Sociology of Europe*, p. 105.

والتفاعل الندِّي السليم بين المهاجرين من دول شمال أفريقيا والأوروبيين أنفسهم، ويطلق العنان لانفلاتات عنصرية وأمنية بين الفينة والأخرى.

ومع توالي الأزمات المالية وارتفاع نسب التضخم وتململ الاقتصاد تحت ضربات متوالية داخلية وخارجية، تضحي هذه الانفلاتات متواترة أكثر من المعتاد، وتجد الحطب الذي يذكيها ويزيد في أوارها في التبريرات الشعبوية المسطحة التي يروج لها اليمينيون المتطرفون في عدد من الدول الأوروبية تقدم إلى المواطن البسيط صورة قاتمة عن المستقبل في وجود المهاجرين المسلمين وتكاثرهم بوصفهم التهديد الأكبر لأوروبا، والهيمنة القادمة ديمغرافيًا ونخبويًا واقتصاديًا، ومن ذلك على سبيل التمثيل الاستبدال الكبير[14]، وهو ما نجد أثره في الكثير من الأبحاث التي تناولت الموضوع الديمغرافي في علاقته بالإسلام بنوع من العنصرية واللاعقلانية غير المبررة في البحث، مثل الاشتغال على معدل الخصوبة عند المهاجرين من أصول إسلامية، وما إذا كان الإسلام يؤثر في درجات الخصوبة[15]... وهي مواضيع أقل ما يقال عنها إنها تصنيفية إقصائية تميز بين السكان الأوروبيين وبين المهاجرين المسلمين وتجعل من هؤلاء مادة للدراسة من منظور عنصري ومن فرضيات ومنطلقات غير بريئة في جوهرها وتشجع على تنامي الخوف من الهيمنة الديمغرافية للمسلمين وتحقيق توقعات نظرية «الاستبدال الكبير» لرونو كامي الذي ألف أيضًا في **المحو الثقافي الكبير**، **ومحو الحضارة**... في إصرار منه على أن أوروبا البيضاء تتعرض لهجمات دينية وثقافية شرسة من المهاجرين المسلمين القادمين ليغيروا معادلة السلطة ثم الثقافة والحضارة الأوروبيتين[16]؛ ففي أجزاء من كتابه يدعو الحكومة إلى وقف الهجرة والتعامل بحسم مع حاملي الجنسية من المهاجرين بإرجاعهم إلى بلدانهم الأصلية ويصرح مباشرة بأن: «فرنسا على سبيل المثال ليس أرضًا للدين الإسلامي، ولم تكن يومًا كذلك، ولا ترغب في أن تصبح كذلك. فحضارتها وحضارة أوروبا تأسستا بصورة واسعة في تضاد ومقاومة لهذا الدين ونظامه السياسي»[17]، ولا يكتفي بذلك من الناحية النظرية، حيث إن الاختلاف بين الإسلام والحضارة الأوروبية يقتضي الاختيار بينهما في الانتماء لا الجمع بينهما فإما أن تكون مسلمًا أو أن تكون أوروبيًا ولا حل وسط بين الأمرين. وهو ما قاده إلى دعوة ضمنية إلى طرد المهاجرين المتشبثين بهويتهم الإسلامية، إذ

---

(14) يعَدّ الاستبدال الكبير تصورًا عنصريًا مبالغًا فيه، أراد له صاحبه أن يجعل المهاجرين المسلمين تهديدًا ديمغرافيًا حقيقيًا للأوروبيين في عقر دارهم يمكن أن يقلب الموازين من خضوع المسلمين آنيًا بوصفهم أقليات إلى إخضاعهم سكان البلدان المستقبلة مع تقدم السنوات وسيطرتهم على دواليب الحكم والاختيارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ديمغرافيًا ثم ثقافيًا للانتقال إلى ما يشبه أوروبا «المسلمة».

(15) انظر على سبيل المثال لا الحصر الدراسة الآتية لنيل درجة علمية الدكتوراه في جامعة أوروبية بالسويد حول الخصوبة عند المسلمين: Burner Bobby, «Religiousness and Fertility among Muslims in Europe: Does Islam Influence Fertility?,» (Master Thesis, Oslo and Akershus University College of Applied Sciences, Oslo, 2012).

(16) يأتي هذا التصور من فكر يميني متطرف قائم على أفضلية الأوروبي وامتلاكه البعد الثقافي والحضاري بالوراثة وأن أي تغيير في بنية أوروبا البيضاء يؤدي إلى سحب جرعات الفكر والحضارة من هذا الفضاء. للمزيد من التفاصيل انظر كتب رونو كامي مثل: Renaud Camus: *Le Grand remplacement* (Paris: Fayard, 2012); *Décivilisations* (Paris: Fayard, 2011), et *La Grande déculturation* (Paris: Fayard, 2008).

(17) Camus, *Le Grand remplacement*, pp. 135- 136.

يقول: «إن الذين يرغبون في العيش داخل مجتمع إسلامي عليهم أن يختاروا بكل عقلانية إقامة أخرى، ووطن آخر غير فرنسا وأوروبا»[18].

ومثل هذه الخطابات العنصرية والإقصائية **معلنةَ** كانت أم **ضمنية، شعبوية**، أم مساندة سلطويًا أم **رسمية** أحيانًا، من شأنها أن تعرقل بلدان الاستقبال نفسها التي أصبحت تواجه واقع الشيخوخة المرير نتيجة انخفاض الخصوبة[19] وميل نسبة كبيرة من الأوروبيين إلى الاستفادة من الرفاهية الناجمة عن تطور الاقتصاد بدلًا من الإسهام الفعلي فيه، وقد مثل فيه المهاجرون منذ الموجات الأولى المقننة **الوقود الحقيقي** الذي ضمن استمرارًا لنمو اقتصادي قام على أكتاف المهاجرين وخيرات بلدانهم الأصلية نتيجة التبعية الاستعمارية **مباشرة** كما كانت عليها منذ القرن التاسع عشر إلى ما بعد منتصف القرن العشرين، **وغير مباشرة** بالتبعات الاقتصادية لتوغل آليات استغلال خيرات هذه البلدان باقتصاداتها النامية. وهو ما يمكنه أن يؤدي إلى حرمان أوروبا نفسها طاقاتٍ جبارةً وفتية من جهة ولا يخدم مصالحها الاقتصادية الخارجية من جهة ثانية على اعتبار حاجتها إلى بدائل لاستيراد المحروقات بأسعار معقولة تعوض المصدر الروسي الذي يتعرض لعقوبات، وهو ما يجعلها تقع تحت رحمة علاقاتها مع الدول النفطية العربية المسلمة علما أن جل المهاجرين من الشمال الأفريقي مسلمون، ودول الخليج النفطية التي تعَدّ الدين الإسلامي أقوى عنصر في هويتها المجتمعية تراقب عن كثب ما يجري في أوروبا وبخاصة تعامل الأوروبيين مع المسلمين والرموز الإسلامية هناك ونظرتهم من خلال ذلك إلى الإسلام، وحتى وهي تتحفظ في مواقفها أو لا تقدم ردود أفعال آنية مباشرة فإنها وتحت ضغط شعوبها يمكن أن تتحول من مجرد الرصد إلى القيام بردود فعل اقتصادية قد تكون مكلفة جدًا للاقتصاد الأوروبي وهو يترنح تحت ضربات الأزمات المتوالية من كورونا إلى الحرب الروسية ـ الأوكرانية وارتفاع درجات التضخم... بل إن بلدان الخليج العربي أضحت الآن أكثر قوة مما كانت عليه وأضحى لها حضور سياسي فاعل في ظل الحاجة الملحة إلى النفط من جهة، وتوغل استثماراتها الاقتصادية في أوروبا توغلًا يصعب تجاهله من طرف الأوروبيين، حيث يفرض الإسلام عليهم نفسه اقتصاديًا من زاويتين شديدتي الأهمية:

ـ اليد العاملة والكفاءات المهنية الفتية والشابة والفاعلة في الاقتصاد من الداخل عبر المهاجرين.

---

(18) Ibid.

(19) تعاني الكثير من البلدان الأوروبية نقصًا في اليد العاملة الفتية بما أثر في قطاعات بعينها وسبب اختلالات كبرى فيها، ومن الأمثلة الحديثة على ذلك معاناة ألمانيا أول اقتصاد أوروبي من نقص العمالة في ميادين صناعية كبرى كصناعة الصلب، الأمر الذي اضطُرت معه إلى تسهيل إجراءات الحصول على التأشيرة الألمانية وبالتراجع عن بعض الشروط التي كانت تضعها سلفا كمعرفة اللغة الألمانية نفسها، حيث أعلنت الوكالة الاتحادية أنها بحاجة إلى 400 ألف مهاجر سنويا لاستمرار القطاعات الحيوية في الاقتصاد. انظر: Arbërie Shabani, «Serious Absence of Skilled Workers in Germany – 400,000 Employees Required to Cover Labour Demands Annually,» Schengen Visa Info, 5 December 2022, <https://rebrand.ly/ij31mo4>.

ـ الاستثمارات الهائلة للدول الإسلامية في أوروبا وحساسيتها في تحريك اقتصادها في علاقة بمواقف الدول الأوروبية من جوهر الهوية الثقافية للرساميل الخليجية[20] إضافة إلى العلاقات التجارية الكبرى مع دول شمال أفريقيا.

وهذا ما يفترض أن تعيه الدول الأوروبية وتستشعر خطره على اقتصادها وبناها الاجتماعية من أجل تجاوز أزماتها التي لم يكن للمهاجرين المسلمين دخل في حدوثها لكنهم بالتأكيد، وانسجامًا مع معطيات الواقع يمكن أن يكون له دور رئيس في الخروج منها بأقل الخسائر.

خاتمة

جدير بنا أن نؤكد أن المكون الديني لدى الجوالي الممثِّلة لشمال أفريقيا في أوروبا، لا يمكن تجاهله أو الالتفاف عليه، فلم يعد الأمر اختيارًا حتى لدى دول الاستقبال الحديثة بسبب تكاثر عدد المهاجرين العرب والمسلمين، وتعاقُب الأجيال من المواطنين الأوروبيين في دول الاستقبال الكلاسيكية بثقافاتهم وطقوسهم الشرقية التي لم تستطع الحياة الأوروبية محوها رغم إغراءاتها وقوة الترويج لها رسميًا داخل المؤسسات التعليمية الرسمية وخارجها باستخدام آليات تقليدية كالفن من موسيقى ومسرح وسينما... فقد بقي العنصر الديني مركزيًا ومحوريًا لدى فئات هائلة من المهاجرين، بحيث يبقى إمكان التعايش مع واقع فرضته الديمغرافيا والفعالية الدينامية للشباب المهاجرين وقدرتهم على التأثير بوضوح في مجتمعات الاستقبال وفرض ذواتهم بهوياتهم الدينية التي لا تتعارض مع النجاح في الميدان، العمليةَ والنظريةَ المختلفة في الفضاء الأوروبي □

(20) تظهر هذه الأخطار الاقتصادية في حالات كثيرة حركت فيها الدول الخليجية مؤسساتها الاستثمارية لتعاقب بعض المواقف التي تمس الهوية الدينية الإسلامية، وكدليل على ذلك نور ما وقع في المونديال الأخير بقطر عندما سحبت شركات قطرية إعلاناتها من لندن بعد قرار المدينة حذف إعلانات المونديال من فضاءاتها العمومية.